انكار الشخصيات التاريخية

لكل عظيم من العظماء البارزين فى التاريخ شخصيتان . شخصيته الحقيقية التى يحاول كل بحاثة أن يشارفها ويتعرف ملامحها ويستطلع دخائلها ليصدق فى تصويرها ويجيد فهمها . وشخصيته المتصورة فى خيال الانسانية العام . ولا خلاف فى أن الشخصية الثانية هى التى أثرت فى حركة التاريخ وسير الحوادث ، وصارت جزءاً من حياة الانسانية جمعاء . فهى التى تستثير العطف أو تبعث الكراهية والنفور ، وحولها تحوم طوائف الذكريات الحلوة والمرة . وهذه الشخصية الوهمية تتبوأ مكانا عاليا بين الحقائق التاريخية ، ولا سبيل الى انكارها وتجاهل تأثيرها لأنها عنصر من عناصر التاريخ الفعالة . وعامل من عوامل تكوينه . وأكثر العظماء الذين لا نمل ترديد ذكرهم ، ولا نسأم الاشارة الى أعمالهم ، إنما تمثلهم بالصورة التى رسمها الخيال العام ، ولوتها التقاليد المتوارثة . ونفس هذه الصورة هى التى نستشهد بها فى أحاديثنا ونتخذها مضرب المثل فى الخير والشر والاساءة والاحسان جيلا بعد جيل

وهناك شخصيات أخرى هى برمتها من مولودات الخيال . أو إن شئت فقل هي من مولودات الخيال الفردى لا خيال الجماعات مثل (هملت ودون كيشوت وروبنسن كروسو ومدام بوفارى ونورا) وهي مع ذلك حقائق تاريخية لانها قد صارت عنصرا فعالا فى التاريخ وتركت أثرا فى حياة الجماعات . ولا يستطيع التاريخ أن يتجاهل مظهرها الحى وأثرها البين .

وكل قوة أثرت فى التاريخ ، وتدخلت فى حياة الجماعات هى حقيقة تاريخية سواء أكانت هذه القوة مصدرها الوهم أم حقيقة الواقع . كما أن كل حقيقة لم تؤثر فى التاريخ ولم تتصل بحياة الانسانية المتعاقبة فهى حقيقة ، ولكنها غير تاريخية . لذلك لا ينبغى أن يكدر أمننا ، ويحرك حفيظتنا ذلك البحث الذى يقوم به المنقبون فى التاريخ عن حقائق الشخصيات التاريخية لان نتائج غوصهم هذا لا تعفى على أثر تلك الصورة ، ولا تزيلها من التاريخ ، لانه قد أثبتها فى ديوانه ، وسطرها فى سجلاته . وانما تنقيبهم هذا اذا صح

التوفيق سيعين على خلق صورة أخرى جديدة تلعب دورها ، وتؤثر فى المستقبل البعيد تأثيرها . وليس ذلك التنقيب بالعمل العقيم . ولو لم يكن له من الأثر الصالح سوى تنبيه حسب الحقيقة المطلقة فى نفوسنا ، ومكافحة الباطل مهما تأثل مركزه . وعظمت سطوته وبعدت فى الماضى جذوره ، لكفاه ذلك سمو مكانة ونزاهة قصد . ولا يحسن بنا أن نتلقى نتائجه بالانكار العجول ، والمقاومة العنيفة ، لاننا لا نخسر به شيئا . واذا خسرنا به شيئا فانما نخسره لنسترده ، ونهدمه لنبنيه . ولكن من الحق أن نتلقى نتائجه فى تحرز وحيطة ، لان لامثال هذه البحوث فتنة مغرية ، وخلابة شيطانية اذ تحرك فى نفوسنا روح الهدم ، ونزعة الفوضى الكامنة وراء كل نظام اجتماعى . ولقد كشف البحث التاريخى حقيقة كثير من الشخصيات التى كانت تشغل فى النفوس مكانة عالية وهى غير جديرة بها . وانما خدع الناس عن حقيقتها ماخلعه عليها الخيال العام من الرواء وما حفها به من عاطر السير . وأخرج من مجاهل النسيان كثيرا من المواهب المنكورة والعبقريات المهملة

من أمثال تلك الشهرات المزيفة التى فضحها البحث التاريخى شهرة السيد فى تاريخ اسبانيا . فقد كان حتى منتصف القرن التاسع عشر مضرب المثل فى الشجاعة والنبل والاستبسال فى الدفاع عن الوطن والدين . وقد أثبت التحقيق التاريخى انه كان رجلا افاقا لا تختلج فى نفسه عاطفة قومية ، ولا يحركه غرض نبيل . وأنه لم يقف فى حياته الى جانب مبدإ ولم ينصر فكرة وانما كان دينه التقلب واشباع انانيته . وكانوا يظهرون شارلمان فى مسوح القديس ، فاذا هو رجل بعيد عن انموذج المسيحى ينساق مع طموحه ويعمل لحساب انانيته

وقد اتخذ فريق من الباحثين تضارب آراء المؤرخين وتناقض الروايات التاريخية حجة الى انكار وجود بعض الشخصيات المشهورة . وكان فيمن احتواهم هذا الانكار هومر وسقراط وسكيامونى البوذا والمسيح وموسى وشك البعض فى شكسبير وشايعهم على ذلك جماعة من الولوعين بتصيد الغرائب ، ورصد المفاجآت . وقد امتاز فى السنوات الاخيرة من بين الادباء والباحثين الدكتور طه حسين بالتوسع فى مذهب انكار الشخصيات ، والذهاب به الى أقصى الحدود التى تسمح بها الاحوال الراهنة . وقد كان الباحثون قبله يكتفون فى ذلك بالاشارة العارضة ، واللمحة الدالة ، ويحتفظون

فى مؤخرة بحوثهم بشيء من الشك كأنهم كانوا يخشون ان يؤخذوا على غرة . أما الدكتور طه فقد أخذ أكبر قسط ممكن من الحرية ، وتوسع فى شرح آرائه وبسط مذهبه ، وقوى ظهره ، ومد فى حجته ، اتجاه بحوث المستشرقين صوب التشكيك فى شتى مناحى تاريخ العرب سواء أفى الجاهلية أم الاسلام . واذكر فيمن تناولهم الدكتور بانكاره امرىء القيس والمجنون اما عن امرىء القيس وخلق قصته على مثال تاريخ عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث فقد أحسن الاستاذ الرافعى تفنيد الاحتمالات التى ارتآها الدكتور ولمست اصبعه موضع ضعفها . وقد بنى الدكتور شكه فى شخصية المجنون على تناقض الرواة فى أخباره من ناحية وعلى استحالة تصديق بعض هذه الاخبار من ناحية أخرى . وأرى ان للمجنون شخصية وان كانت غير واضحة كل الوضوح لما نسج حولها من أقاصيص . وبعض الحوادث المدونة فى سيرته تلتئم تمام الالتئام مع الاشعار التى أعرب فيها عن عواطفه وصور بها شعوره . وهناك شبه وحدة تدل على ان هذه القصائد المشجية تنصب من نبع بعينه وانها فيض نفس استطارها الحب وكظها شجوه . فليختلف الرواة ماشاء لهم الخلاف فان أمامنا طائفة من الاشعار لها ميزتها وعليها طابعها . ومثل هذه النفس التى فعل بها الحب أفعاله وعلاها كل هذا العلو . لانستبعد عليها أن تنفر من الناس ، وتتحاشى لقاءهم ، وتأنس بالوحدة تستروح بها من دائها الخامر ، وعواطفها الملتهبة . ومازالت الوحدة والانفراد ملاذ الكل من غلبته عاطفة كبيرة ، واستولى عليه شعور قوى . وتراه يردد فى اشعاره فكرة أن عقله قد شرد واختلس ، وأصبح مذهوبا به كل مذهب . وتلمح من اتجاه خواطره إلى هذه الناحية أنه جاد فيما يقول ، وأنه يصف حالة نفسية تغشاه وتسمع فى كثير من أشعاره تسائل الحائر اللهيف ونغمة اليائس الوجيع الذى يرميه اليأس الى أبعد قراراته فى حين يسمو به الحب إلى أعلى سماواته

وقد يستطيع الراوية أن يزيف الأخبار ويسرج الاكاذيب ولكنه لايقوى على أشعار نفسه قوى العواطف ، وعنيف الوجدانات ، إلا إذا كان قد تقمص روح المجنون وأصبح هو نفسه « مجنون ليلى » كما تقمص شكسبير روح عطيل وهملت . وهى قوة دراماتيكية نادرة لم يرزقها إلا أفراد قلائل فى تاريخ الادب العالمى . ومن العسير أن نؤمن بتوفرها فى جماعة الرواة فى الادب العربى وما الذى عاق الادب العربى

إذن ـ وهذه معذرة رواته ـ عن خلق الدراما والتوسع فى الشعر القصصى والادب الروائى ؟ واذا كان أمثال هذه القصائد من عمل الرواة وكان لهم من معاناة الحفظ والكد فى جمع الاخبار مايصرفهم عن الانقطاع للخلق والابتكار فاى معجزة من المعجزات الادبية كان يأتى بها الشعراء المتوفرون على الشعر لو عالجوا هذا الفن وأوقفوا عليه ملكاتهم والصفة البارزة فى الشعر العربى هى صفة الشعر الغنائى الشخصى ويصعب علينا أن نؤمن بتوفر موهبة الدراما فى الرواة مع حرمان الشعراء الخلص منها

والارجح عندى أن هناك نواة من الصدق فى قصة المجنون ، وهى شخصيته الاصيلة . وقد جاء الرواة فجمعوا مانسجه الخيال العام من الاقاصيص حول تلك الشخصية ، وهذا مانفسر به كثيرا مما يروى عن (عنترة والمهلهل وسيف بن ذى يزن) وكلهم من من الشخصيات الثابتة تاريخيا ، ولاشك فى وجودها إلا إذا تناولنا بالشك تاريخ العرب فى جملته وتفصيله ، وهدمنا الثقة بالرواية من أساسها . وحطنا فى ليل من الشك مظلم لايزحزح ظلمته النقد ، ولايسفر فى داجيته التحقيق . وقد نسج الخيال الشعبى حول ميلاد البوذا خرافات كثيرة ، وأضاف الى حواشى سيرته طائفة من موثق الاخبار ومستبدع الاخيلة . ولكننا خليقون أن نستبين محياه خلال تلك التظاليل البهيجة ومن بين الاطار الجميل الموشى بالرسومات والصور . وأرجح أن عظم تأثير شخصيته فى نفوس الشعب هو الذى أثار الخيال الشعبى وملأه بالتهاويل كما أن شهرة عنترة بالشجاعة وماعرف عن بلاء المهلهل فى حرب البسوس وما أذيع عن المجنون من قوة العاطفة وصدق الحب جعل الخيال الشعبى يبالغ فى أخبارهم أعجابا بهم ، واستعظاما لذكراهم . وعمل المؤرخ هو أن يقلص عنهم هذه الظلال الكثيفة الضخمة ، ويبرز لنا من وراثها حقيقة شخصيتهم مستعينا على ذلك بطول الغوص والتنقيب وقوة الحكم وصدق التصور . وقد ذهب الأب جون هدروين ـ من كبار علماء القرن السابع عشر ومن المتأثرين بفلسفة ديكات ـ إلى إنكار التاريخ فى جملته ، وزعم أن الرهبان هم الذين كتبوا التاريخ المعروف فى القرن الثالث عشر ، ونسب اليهم الكتب المعزوة إلى ليفى واوفيد وغيرهما ، واثارت أراؤه الغريبة كثيرا من المناقشات الجدلية فى أوائل القرن الثامن عشر . وارجو أن تكون جهود المتشككين الجدد أبقى ثمرة وأعود بالفائد على البحوث التاريخية من جهود الاب هدروين ؟

على أدهم